المحادثة الرقمية ومنطق الأهواء
بحث في سيميائيات الكتابة الأيقونية

عبد القادر فهيم شيباني
جامعة معسكر، الجزائر.

يسعى هذا البحث إلى ابتداع تقـــريب بين الأنماط الثلاث: (اللسانيات والسيميائيات والتداوليات) التي يتكامل من خلالها الفهم الصحيح للظواهر اللسانية، ولعل الإشكالية التي تبدو أقرب لتخليق مثل هذا التواشج، أوالتهجين النظري، يمكنها أن تنطلق من التعمق في فهم ظاهرة الكلام. لقد عدت مبادئ إيميل بنفنست التلفظية ، مدا لجسور التداوليات في الحقل اللساني، وتعميقا للفهم بتصورات أوستين لنظرية أفعال الكلام، . غير أنه يجاب على هذه النظرية، تمركزها حول فعل الفعل الكلامي، وإهمالها لفعل الكينونة. إذ ليست اللغة أفعالا تقررها الجمل لصالح المتلفظ له، بل هي أيضا كاشفة عن كينونة المتكلم أي المتلفظ نفسه، ومثل ذلك يتجلى بوضوح أكثر على نطاق ا لمحادثة. هذه الكينونة، تتجاوز بطبيعتها حيز المنطوق وتميل في أثناء الحدث الكلامي إلى التخفي من وراء أقنعة العلامات شبه لسانية. إن ما نعنيه بفعل الكينونة، هو بالتحديد بحث عن سيميائيات للأهواء الكلامية وفهم متمم لفلسفة التلفظ، وهو مساءلة جديدة لعلاقة المكتوب بالمنطوق.

المحادثة ولسانيات الكلام

لقد مثلت تلك المدارج المنهجية، للمحاضرات السوسيرية، خطوطا للآفاق المستقبلية للسانيات كعلم قابل للحياة داخل الاقتصاد العام للعلوم الإنسانية، وعلى هذا النحو أمكننا اليوم أن نتبين بيسر عمق الفهم السوسيري المطرد لجوهر اللسان؛ بوصفه موضوعا لها العلم. وضمن هذا التصور، بدا من مهم بالنسبة لـ: دوسوسير، توجيه الأنظار إلى لسانيات الكلام، باعتبارها أفقا رحبا للسانيات. إذ لم يكن اليقين الذي أبداه دوسوسير اتجاه هذا العلم، حائلا دون إقراره بصعوبة تحديد جوهر الكلام، طالما أن الخوض في تعريفه، كفيل لوحده برسم المعالم المستقبلية للسانيات العامة.

لم يكن الجهد الذي أضافته لسانيات النص، وذلك على الرغم من أهمية قضايا الاتساق والانسجام في استكشاف التخوم الأولية لموضوع الكلام، ليقربنا مما كان يرجوه سوسير ، ذلك أن ماقدمته لسانيات النص للسانيات الكلام، لايختلف في نظرنا عما قدمته الصوتيات للسانيات اللسان. إن قضايا الاتساق والانسجام، هي في الواقع، لا تمثل سوى الجانب المحدود من الكلام؛ بوصفه موضوعا واصفا (méta-objet). لذلك يمكن، في المقابل لموضوع المحادثة، انطلاقا حتى من طروحاته الأولية، التي رسمت خطوطها جهود غرايس التداولية، وتابعتها كاترين كريبرايت أوريشيوني، أن يضع حجر الزاوية، من أجل بناء معالم فعلية لموضوع الكلام على النحو اللساني المأمول.

الكلام والكتابة:

يصر رولان بارت، على نقد "**سيميوقراطية**"(sémiocratie) الأنساق اللغوية في الثقافة، حيث تحيل الرموز والكلمات في الغالب إلى معنى قيمي، وبهذا الفعل يكرس مفهوم المعنى نفسه، اللغة كأداة لخدمة القيم الاجتماعية، إنها حسب اعتقاد **بارت** ديكتاتورية، تجعل من الخطاب والكتابة والفن، مشروطة بفعل الإحالة إلى تلك الحقائق المعيارية والمطلقة كالجمال والحسن والصدق والعقل وغيرها. ولكن ألا تبدو علاقة الكتابة باللسان نفسه، علاقة ندية أعقد من التصور المبدئي لسوسير بخصوص عرضية الكتابة، حيث يمكن للخاصية "الخطية" أن تحظى، بنصيبها من التعميق اللساني. إذ لايمكن للكتابة، أن تنأى بنفسها عن لعبة صناعة المعنى والمعنى المصاحب، بخاصة إذا ما التفتنا إلى تلك المحاولات الجديدة التي تسعى إلى تطوير كاليغرافية المكتوب، وتلك محاولات تغتني بها الفضاءات الرقمية، في صراعها نحو تجاوز رمزية الحرف بنزعة أيقونية صارخة.

النص الهيروغليفي وفعل الأيقنة

تسعى العلامات في الكتابة الهيروغليفية، بالنظر إلى نظامها الإسنادي، وقوة حضورها لأن تكون مرآة عاكسة لقوى الواقع الخارجي، وعليه فالنص الهيروغليفي، يعد موضوعا للمعالجة،

التي تعكس بعض الأفعال على العالم، وتستكشف ذكاء العالم.وبالنظر إلى طواعية، قواعد الكتابة الهيروغليفية (حرية تشكيل أحجام العلامات، أو تعديل هيأتها الإسنادية، وصورها الأصلية أو تغيير اتجاهها الخطي، أو عددها)، فقد دأب المصريون، على تطوير الكتابات الهيروغليفية، سعيا لبلوغ صور للتمثل الحي للواقع، بما ينافس أويتفوق على تلك العلامات التجريدية للكلام المنطوق[1].

الخطية التعبيرية في الكتابة الصينية

يسعى نظام الخطية التعبيرية (les idiographes)، في الكتابة الصينية، إلى ترجمة النظام الطبيعي للعالم، فعلى خلاف الهيروغليفية، تحاول الحروف الصينية، أن تبتعد عن محاكاة اللغة المنطوقة بصفة مباشرة، بوصفها تمثلات للبنى الكونية. إن الكتابة الصينية، لم تكن منقادة نحو فكرة تسجيل الملفوظات اللسانية، ولكنها كانت تروم خلق وإبداع لغة كتابية، وليس فقط كتابة ناقلة للمنطوق[2].لقد وجدت الكتابة الصينية، في بداياتها، للتواصل بين الأرواح والآلهة، ثم مالبثت أن تطورت إلى أداة بسيطة للتواصل، وتقييد الفكر. إن الأشكال النصية، المكتوبة بالحرف الصيني، تؤلف نظاما للبناء، محدد لمسارات وتوافقات المكونات الرمزية، تعيد إنتاج العادات الفكرية، بشكل يركز على التأمل أكثر من الفهم[3]. إن نص الكتابة التعبيرية، ليس مجرد تجميع علاماتي، معد لتتبع المساراتي، بما ينسجم مع عقلانية التجريد البصري، إنه أشبه بلوحة تشكيلية، تجعل من فعل القراءة المرتبط بتحقيق الفهم الخطي، لايختلف عن نظرتنا التأملية لمناظر الطبيعة.

التجريد الألفبائي وميلاد النزعة الصوتية

يترجم تحول الكتابة التعبيرية إلى أنماط الكتابة الألفبائية، تلك الهيمنة التي بدأ الكلام يحتلها شيئا فشيئا، على ساحة التواصلات الإنسانية، وتناسبا مع خط الزمن وسرعة التبادل الكلامي، استعيض عن القوة الأيقونية للخط، بالوحدة الشكلية وبساطة الحروف الصوتية، فظهرت أنساق جديدة من الكتابة الصوتية، تعتمد على نظام الصوائت والمقاطع الصوتية، وهو ما مثل قطيعة فعلية مع الكتابة ذات الخطية التعبيرية. لقد كان الفينيقيون سباقين إلى اعتماد هذا النظام الكتابي، وقد سهلت حياتهم التجارية، في إنجاح هذا النظام الخطي وتعميمه بين الأمم.

لقد عدت الكتابة الألفبائية، بمثابة الناقل الأمين للتمفصلات الصوتية للكلام، بل وانخرطت منذ نشأتها، تحت نظام الخطية الصوتية. حيث دأبت، الخطية الألفبائية، على العناية الفائقة بتأسيس أنماط للترميز النظامي، تخضع فيه الحروف في ارتصافها، لخط موجه، يتم المحافظة عليه، عبر مبدأ التتالي السطري.

المحادثة الرقمية

يكاد الاهتمام البحثي ينصب في الآونة الأخيرة حول قضايا من قبيل الحوار، المحادثة اللفظية، التواصل بين الافراد، التفاعل وجها لوجه، ومع التمركز الذي كانت تبديه اللسانيات في السابق حول الصوت، بدت تضح معالم اهتمام جديد داخل حقل علم اللغة، وذلك ما أضحى يغني ساحة العلوم اللسانية بفروع علمية جديدة من قبيل الإثنوميتودولوجيا، واللسانيات الاجتماعية التفاعلية، وتحليل المحادثة، وإثنولوجيا اللغة وغيرها، حيث تشترك هذه المواد في التركيز على الخاصية التفاعلية (l'interactivité) من جهة ومبدأ التعدد القناتي (la multicanalité) من جهة أخرى . تتلخص الخاصية التفاعلية، في تلك الملفوظات التي يتم في الأصل إنتاجها بشكل تعاضدي بين المتفاعلين، وهي تمثل محصلة مجموع الأنشطة المتعلقة بكل من الباث والمتلقي. أما التعدد القناتي، فهو يمثل ذلك المزيج المتنوع الذي يجمع بين ماهو لفظي وما هو غير لفظي، وبذلك فهو يشمل ماهو صوتي وإيماء- شاري.

إن الجهود التي تعني اليوم، بالبحث في فنون المحادثة داخل الشبكة، من خلال الوقوف على مختلف دعامات التواصل التي يوفرها الفضاء الرقمي(التراسل الالكتروني، المنتديات، المدونات، التعليقات، والشات أو مايعرف بالدردشة الرقمية[3])، من شأنها ضمن دائرة البحث السيميائي أن تكشف عن تقاليد جديدة للتعريف عن النفس من خلال اللغة وأشكال تشكيل الذات وتصويرها للآخر، في ظل النزعة التفاعلية (l'interactionnisme) ، ومن ثم استجلاء صور التواصل والتعاضد اللغوي، والتي تختلف تقنيا عن الصور النمطية للتواصل المباشر. يمكننا في الوقت الحالي تجاوز الثنائية السوسيرية لايجاد الحيز الفعلي للمحادثة بوصفها ظاهر كلامية، إذ نحتاج في مقابل ذلك للعودة إلى التفريع الثلاثي بين اللسان، الكلام والاستعمال. ذلك أن المحادثة، حسب زعمنا تظل مجرد استعمال من بين استعمالات الكلام، فللسان ذو طابع سنني، والكلام هو تطبيق سنني ينتظم على منحى نسقي، بينما تأخذ استعمالاته طابع الفعل.

تعد المحادثة الرقمية (أو الشات) فضاء افتراضيا للتعارف، وتوطيد العلاقات الاجتماعية داخل نطاق العالم الرقمي، غير أنها تتمايز عن باقي أدوات التعارف الأخرى، بقدرتها على تزمين المبادلات الكلامية، وإتاحة فرص تواصلية خاصة وعامة عبر نظام الغرف، كما يمكن لهذه المحادثة أن تحفظ للفرد المتكلم خصوصيته الإسمية، على اعتبار أن للمتكلم الحق في اختيار اسم مستعار (un pseudonym).

تداوليات المحادثة: من فعل الفعل إلى فعل الكينونة

لا تقوم المحادثة أو المحاورة على سلسلة من التعاليق أو الجمل المتفككة، لانها تصبح غير معقولة، وهي في المقابل تعتمد مبدأ التعاضد، حيث إمكانية اختلاف أهداف المتحادثين، غير أن الفعل الكلامي في المحادثة الرقمية يقوم أساسا على فعل تحويل الملفوظات الشفوية والعفوية إلى تفاعلات مكتوبة، وعليه ينبغي أن نأخذ بالحسبان، حدود وطاقات الأشكال التقنية والخطية لمثل تلك التطبيقات في المحادثة الرقمية. ذلك أن البحث التجريبي حول المحادثة الرقمية، من شأنه أن يحيلنا إلى القدرة المتطورة التي تتمتع بها الشاشة بوصفها فضاء تفاعليا في استعراض تلك الوظائف شبه اللسانية، ذات الصلة بالحضور أو التموجد الفيزيائي للمتحادثين (الإيماءات والإشارات والملامح النظرات التعبيرات الملمحية وغيرها). الواقع، أنه على نطاق المحادثة الرقمية، يكون المتحدث مرغما أو ملزما باستعمال تلك التقنيات الخطية، وذلك قصد التدليل على حضوره الفعلي من وراء الشاشة، ومن ثم مشاركته في المحادثة.

إن أفعال الكينونة في الكلام أو مايسميه السيميائيون بحالات النفس (les états d'ame)، ظلت مقصاة من حيز البحث التداولي، بينما سجلت التداوليات مع بداياتها تمركزا حول الفعل الكلامي، ابتداء مما قدمه أوستين في نظرية الأفعال الكلامية.إن نسق أفعال الكينونة، في الكلام أو المحادثة من شأنه أن يؤسس لقاعدة فعلية لسيميائيات الأهواء، وذلك إذا مافعلنا المصادر السوسيرية التي تؤمن بأنموذجية النسق اللساني بالنظر إلى الوقائع السيميائية المختلفة.

حال ما يدخل المتحدث برامج المحادثة الرقمية، يكون قد قرر إقامة حوار عبر القناة التي تتيحها الشبكة ، انطلاقا من حاسوبه الشخصي وحاسوب المحدث إليه، ويكون هذا القرار متضمنا لقبوله الطوعي باستعمال اسم مستعار وقبول المتحدث إليه باسمه المستعار أيضا، هذا الحوار هو في الأصل حوار بين شخصيتين واقعيتين، ولكن ضمن نطاق افتراضي. إن المحادثة الرقمية كما يعتقد البعض، تمثل في حقيقتها صورا من صور البحث عن إعادة تشكيل الذات للآخر. ويمكننا ضمن الإطار السوسيو- لساني، أن نخلص إلى أن موضوعات المحادثة الرقمية لا تخرج في الغالب عن الحيز الترفيهي، ولعل الاستقصاء حول البواعث التي تدفع المتحادثين في الغالب نحو المحادثة الرقمية، تخرج كليا أو بصورة شبه كلية عن الجدية، عدا في بعض الحالات القليلة.

فعل التلفظ بين المكتوب والشفهي:

لقد ذهبت المدرسة الفرنسية، إلى المراهنة على مفهوم الملفوظ، بوصفه وحدة أساسية في الخطاب، تتجاوز تفاصيل التمفصل المزدوج، في لغة النص، وتراهن على وحدات القول الكبرى. إن الملفوظ- كما يعرفه جون دي بوا- يمثل كل تتابع جملي يقع بين بياضين دلاليين أو وقفين تواصليين، أما الخطاب فهو نتاج الآليات التي يتوقف عليها وجود الملفوظ نفسه. وعليه، ألفينا

إميل بنفنست، يميل في تعريفه للخطاب، إلى توصيف هذه الآليات المنتجة للملفوظ، بمصطلح التلفظ.

إن التلفظ، هو مايفترض التحوير الفردي للسان إلى خطاب، فهو بذلك كلام، أو بالأحرى نشاط كلامي يتضمن وجودا للمتكلم (مرسل)من جهة والمستمع (مرسل إليه)من جهة أخرى، غير أنه يظل في جوهره مرتبطا، بقصد تأثير الأول على الثاني. وعلى هذا النحو، فإن صور النشاط الكلامي أو التواصلي على وجه العموم، تظل في نظر لسانيات التلفظ غير منفصلة عن عوالم تشكل المعنى الخطابي، طالما أن تقرير المقصدية، مرتهن في جوهره، بحيثيات السياق في أثناء الحدث التواصلي. بيد أن حيثيات التلفظ تجد ما يترجمها على صعيد الملفوظ، وإن كان مفهوم الملفوظ كما أثبته جون دي بوا، منسلخ بصورة كلية عن الدعامة التي تؤثثه، فإنه يبدو لنا من الضروري مناقشة هذه الجزئية، عل اعتبار أن الملفوظ متعلق في تموجده بفعل التلفظ، والسؤال الطبيعي كيف تنعكس صور هذا الفعل أو النشاط داخل الملفوظ بالنظر إلى الدعامة الملفوظية؟ ولعل ذلك ماحذا بجوزيف كورتاس للتميز بين الملفوظ الملفوظ والتلفظ الملفوظ، على اعتبار أن الثاني يحتوي الأول.

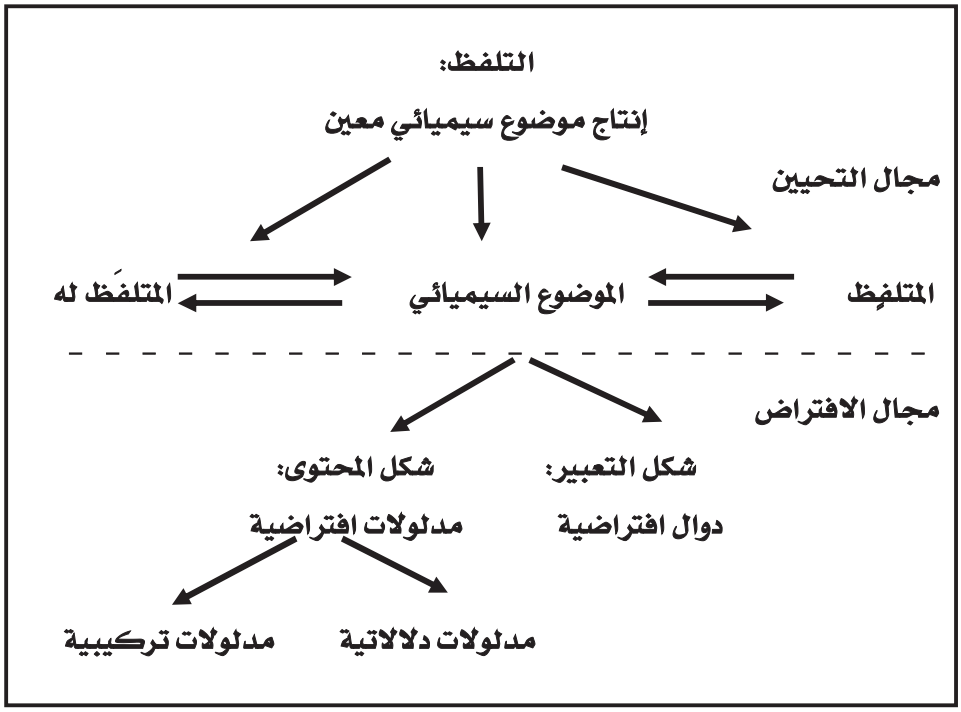

مخطط ج. كورتاس[4] لفعل التلفظ

ولعل البحث عن تلك العناصر التي يمكننا اعتبارها داخل الملفوظ بصمات أو آثار لإجراء التلفظ التي تؤدي إلى إنتاج الملفوظ، ومن ثم استخراج آليات اشتغالها وانتظامها وتفاعلاتها، يعد واحدا من أولويات من اجتهدوا في تقديم تعريف لهذا المفهوم.

صحيح أن الخطاب، لايتعدى كونه مجموعة من الملفوظات، بيد أن هذه الملفوظات غير مشروطة باللسانية، ولعل الكثير من ينظر إلى تحليل الخطاب أو المحادثة، بوصفه مرادفا للدراسة اللسانية للوحدات عبر- الجملية، وذلك ضمن رؤية نحوية خالصة، تتمنع عن الإحالة إلى شروط إنتاج الخطاب. ثمة إذا بين المنطوق والمسكوت عنه، كما يشير أسولد ديكرو، مسافة فارقة في الخطاب بين المكون اللساني والمكون البلاغي، ووجه التكامل بين هذين المكونين، هو ما يمثل رهان محلل الخطاب. وعليه فإن البحث في نسق الكتابة على برامج المحادثة، من شأنه أن يميط اللثام عن الخطط التلفظية في الكلام، كونه يستند إلى نسق متكامل للتعبير عن حالات التدرج الأهوائي في انفعالات الكلام.

من رمزية الحرف إلى أيقونية الرسم

يعد الاقتصاد التعبيري واحدا من شروط فاعلية العلامة لتحقيق التواصل، ومثل هذا الاقتصاد الذي يقع على أسنن الكتابة يلفت الانتباه إلى خطط المتواصلين واستراتيجياتهم في أثناء المحادثة الرقمية، التي تطمح إلى تحويل الإبداع الفردي في إنتاج العبارات اللغوية إلى تدقيق للأوضاع اللغوية.

لقد أشرنا سلفا إلى أن نظرية أوستين تتقوقع حول الفعل، ولذلك يمكننا أن نحدد تداوليات الأفعال الكلامية ضمن رؤية للفعل: فقول المتحدث: "أ" الطقس حار(في وضع يكون فيه مستضافا في بيت "ب")، يتضمن فعلا لغويا مؤداه: افتح النافذة مثلا(= شغل المكيف أو=قدم لنا شرايا باردا)، ولعل التعريف اللغوي بتلك التلفظات ذات المنحى الفعلي يظل أمرا يتيسر استظهاره لسانيا. في المقابل يمكننا أن نسجل في المحادثات حالات من القصور التعبيري للكتابة أثناء استعراض الأهواء (les passion)، ففي الوضع الذي يكون فيه كلام المتحدث مضحكا، فإن العلامة اللسانية في شكلها المكتوب لا تقوى سوى على استظهار الحال المعيارية للضحك، ولعلنا ندرك تمام الإدراك الفرق بين أن يكون الكلام مضحكا أو يدفع للتبسم أو الاستغراب أو السخرية أو التعجب، وكل تلك الحالات تشملها العلامة اللسانية لكينونة الضحك، بينما تتفوق الأيقونات الأهوائية في برامج المحادثة الرقمية على استظهارها. ولسنا في هذا الصدد، نبخس علامات الكتابة غير الحرفية، ونعني بها علامات الرقن، دورها في استظهار بعض الأفعال الكلامية للكينونة. نحن نتحدث إذا عن إمكانية، التحول بنظرية الأفعال الكلامية، نحو قوانين فعل الكينونة في الكلام، وهو ما يمثل المجال الفعلي لسيميائيات الأهواء. كل ذلك سيقودنا إلى تأمل جوانب جديدة من أشكال التلفظ، انطلاقا مما تتيحه الرؤية السيميائية للتلفظ.

نسق الأيقونات الأهوائية:

تختلف تقنيات الكتابة الحرفية في برامج المحادثة، بوصفها إضافات كليغرافية (كتجسيم الحروف أو تحريكها، أو استعمال الأعداد كأحرف وغيرها)، إلا أننا سنحاول التعرض إلى تلك العلامات شبه اللسانية، التي لا يمكن لبرامج المحادثة الرقمية أن تستغني عنها، ولعلنا بهذا الفعل سنحاول تعميق الفهم بنسق خاص يتناغم من خلال أيقونيته بشكل ملفت مع الرمزية الكاليغرافية للحرف.

تمثل الأيقونات الأهوائية (les émoticônes) تصويرا قرينيا لعاطفة تتعلق بالأهواء الكلامية، أي حالة من حالات النفس في أثناء الحدث الكلامي. إن الأيقون الأهوائي، يمكننا في واقع الأمر من اختصار التعبيرات الملمحية للوجه وإضافتها إلى نسق الكتابة، ونعني بها تلك التعبيرات التي تتترجمها تنغيمات الصوت أو إيماءات النطق الإشارية. كل ذلك يلفت انتباهنا، مع فاعلية هذه الإضافة الكتابية، إلى العجز الذي يعتري رمزية الحرف، في تصوير الفعل الكلامي، هذه الإضافة تبدو على قدر من الأهمية في تجسيم المساق(le cotexe)، الذي تصنف حيثياته داخل دائرة العناصر الشبه لسانية.

مبدأ التجريد البصري

يمكننا مبدئيا أن نستفيد، من تقريب جوزيف كورتاس[5] في سبيل تحقيق فهم بصري لنسقية الأيقونات الأهوائية، فمن خلال عملية تجريدية للمعطيات البصرية للأيقونات الأهوائية، نستطيع أن نستكشف " أن العناصر الثابتة على صعيد الدال في هذا الرسم، لا تمثل صورة بسيطة، ولكنها عبارة عن مجموعة من **المشكلات البصرية** المتمفصلة: تأخذ شكل تصوير على صعيد التعبير، ونعني به ذلك التصوير المتعلق بـ:"الرأس؛ أما المتغيرات فتتعلق بوضعية بقية الخصائص البصرية الأخرى وبشكلها داخل الرسم. إذ نلاحظ مثلا، أن مدلول "الهدوء" يتضمن مشكلات(خطوط منفصلة، وموزعة على مستويات مختلفة، للتعبير عن مدلول" العينين "و"الفم"،) متتالية على خط/ الأفق/، في حين أنه في وضع "الابتهاج" .و"الحزن"، يأخذ الفم" شكل خط/ مقوس/؛ يتجه عكسيا إلى الأعلى أو الأسفل بحسب الحالة (وينطبق الأمر نفسه على رسم"العيون"، حيث يكون التموضع البصري للخطوط المائلة في وضع متعاكس بين حالتي "الابتهاج" و"الحزن").إذا ما تأملنا هذا الرسم البسيط بوصفه كلية للدلالة، فإن الثيم العام يمكنه أن يكون متعلقا بـ: .**حالات النفس**".

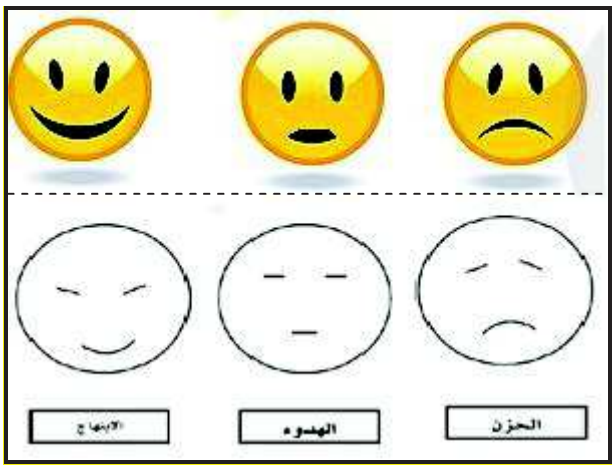

يقول كورتاس[6]: "إن الحديث عن أي موضوع سيميائي، مرتهن بالتعرف، وبشكل افتراضي، إلى كلية محددة، أي إلى **مجموعة دالة** محددة سلفا (على الأقل بصورة اعتباطية)، ليس بمراعاة **المدلول** فحسب (أو **صعيد المحتوى** كما يصطلح عليه يامسليف)، ولكن أيضا بالالتفات إلى **الدال** (وذلك بحسب الدعامة المعتمدة سواء أكانت سمعية، بصرية، لمسية، شمية أم ذوقية)وهو مايوافق في اصطلاحات ل. يامسليف **صعيد التعبير**. ومن خلال هذه الرؤية، قد تتاح لنا فرصة الاشتغال ضمن نطاق أكثر.موضوعية.وينطبق الأمر نفسه على المرئي، ولنأخذ كمثال على ذلك ماهو ثابت (التمثل الكاريكاتوري لملامح الوجه الإنساني، كما هو موضح في الخطاطة أدناه)، إذ يكفي تغيير وضعية و/ أو شكل الخطوط المشكلة "للعينين "و"الفم"، حتى تتبدل بالتوافق دلالة الملمح (الموضحة تراتبيا تحت كل صورة بمفردات لسانية ."

تشارلز داروين وفيزيزولوجيا الأهواء

لقد استطاع **داروين**، في دراسة[7] له حول علاقة الإنسان بالحيوان، أن يرصد بمنهج استقرائي، مبدأ التعبير عن الأهواء، انطلاقا من البعد الفيزيولوجي باعتباره نتيجة لسببية الأهواء أو حالات النفس عند الإنسان، وبالرغم من أن داروين لم يكن ليغامر في بحث الخصوصيات الأهوائية عند الإنسان، وتشعباتها وتعقدتها لاعتقاده بسلم الرقي ومبادئ التطور، وذلك بالتركيز فقط على البعد الانفعالي فيها، من خلال الرصد الأيقوني لصور تلك الانفعالات التي تعد مظاهر تعبيرية عن الأهواء. وإن كنا نعتقد بضرورة التمييز في هذا التقريب بين الأهواء والانفعالات. وعليه لايمكننا بأي حال من الأحوال أن نقارب بين انفعالات الحيوان كحركات تعبيرية (كانفعال الخوف، واللعب) على اختلاف وسائلها التعبيرية، وبين العواطف النفسية عند الإنسان. غير أن ذلك قد لا يمنعنا، من استكشاف حاجة كل منهما الفيزيولوجية للحركات الجسدية، وذلك مايشكل في نظر داروين المبادئ العامة للتعبير. وهي تشكل في نظرنا، مبادئ لإنتاج العلامات الأهوائية، والتي يترجمها قرينيا نسق الأيقونات الأهوائية، في المحادثة الرقمية.

يقول داروين[8]: "إن حركات التعبير تعطي حيوية وطاقة لكلماتنا المحكية، وتكشف عن أفكار ونيات الآخرين أكثر مما تفعله الكلمات التي قد تكون مرائية وغير حقيقية...على ما يأتي به أشخاص مختلفون من استخدامات متعددة لعضلات وجوههم وفقا لطباعهم أو أمزجتهم ما يزيد من تطور هذه العضلات. وتزداد خطوط التغضضات على الوجه، بسبب التقلصات المحكومة بالعادة، عمقا وغرابة".

يعكس نسق الأيقونات الأهوائية، بالنظر لارتباطه بلغة التواصل، بتماثلية معللة فيزيزلوجيا، حركات عضلات الوجه. ذلك أن الوجه هو الدعامة الأساسية للتعبير عن مختلف الأهواء الكلامية عند الإنسان، وعليه فإننا نجد نسق الأيقونات الأهوائية في برامج المحادثة الرقمية، ينطلق بصريا من تمثل هيئة الوجه بأيقونية استعارية تتخذ من شكل الدائرة أساسا لمحاكاة استدارة الوجه، تحتفظ بالمقومات الفيزيو لوجية للوجه، حيث يشكل حضور العينين والأنف والفم قاسما مشتركا. إذ يمكن للدلالات الأهوائية أن تتعدد بتعدد تعبيرات الوجه، إلى درجة قد تقودنا إلى حالات من الغموض الأهوائي أو العاطفي للمتحدث، ذلك لأن هذه التعبيرات تمليها حركة العضلات ووضعياتها المتحكمة في إنتاج الهئية النهائية للملمح، وهي في مجملها مصدر لتحريك العينين والأنف والفم.

إن "الوجه هو الأداة الرئيسية لتصنع الحركات والتعمية والتغطية عن الضمير المستتر في النفس، ففيه العينان والشفتان والحاجبان والجبينان، والجبهة، والرأس، والشعر، والأنف، والفم، كل ذلك ذو أثر ظاهر في محاولة إظهار معان مصنوعة تخفي مراد النفس المستتر، كالتبسم أو التهجم أو الضحك أو التراخي"[10]. لذلك فإن الحضور العيني للوجه في أثناء المحادثة، يمتد حتى للكشف عن طبيعة الخلقة إلى الإبانة عن طبائع الأفراد المتكلمين، وفي هذا الصدد يمكننا أن نشير إلى جهود ناعومي آر. تيكل [11] التي انصبت حول دراسة دور السمات الخلقية للوجه ودلالتها على الطباع الشخصية. وعلى هذا النحو يؤدي البعد الاستعاري للعلامات الأيقونية للأهواء، إلى تفادي حالات الفضح المبكر للطبائع الشخصية، ولا يعني ذلك البتة أن هذه الاستعارية، غير قابلة للانحلال(بحسب اصطلاح بورس)، فانحلالها القريني يعكس بصدق أو بقصد غير صادق أحيانا الحالة الأهوائية للمتكلم في أثناء المحادثة.

قواعد استعمال الأيقونات الأهوائية في أثناء المحادثة

يمكننا أن نعتمد مبدئيا مفهوم التضمين المحادثاتي عند بول غرايس، إذا ماجاز لنا اعتبار الإدراجات الكتابية للأيقونات الأهوائية تضمينا محادثاتيا، كمفهوم قاعدي لاستيضاح هذا الفعل الكتابي بوصفه فعلا مؤسسا للنشاط الكلامي في أثناء المحادثة الرقمية. يقول غرايس: "أستطيع الآن ضبط مفهوم التضمين المحادثي. فشخص ما لأنه (في المكان والزمان) وهو يقول (أو يوهم أنه يقول) القضية "ق" يكون قد ضمن "ض"، بإمكاننا اعتباره ضمن محاداثيا شريطة:

1- افتراض أنه يراعي قواعد المحادثة أو على الأقل "م. ت."

2- افتراض أنه يدرك أو يظن أن "ض" مستلزمة حتى يجعل قوله (أو مايوهم أنه يقوله) "ق"(أو ما يفعله بهذه العبارات) متوافقا مع هذا الافتراض.

3- أن يعتقد القائل (وهو يود توقع أن المخاطب يعتقد أن القائل يعتقد) أنه مما يدخل ضمن كفاءات المخاطب أن يتدبر أو يدرك حدسيا أن الافتراض الوارد في (2) ضروري"[12].

لافتراض حالات تضمين أيقوني للمحادثات، المعبرة عن الكينونة يلزمنا افتراض أنه قد وقع على الأقل حالة من حالات التفاعل الكلامي لأحد الطرفين استجابة لاستثارة دلالية تستهدف أو لا تستهدف بالأصل حالة الكينونة. إلقاء التحية مثلا، يمكن مقابلته بالأيقون الأهوائي الدالة على التبسم(تفاعل محدثاتي لايستهدف الكينونة). وذلك على خلاف قول نكتتة مثلا(تفاعل محدثاتي يستهدف الكينونة).

إن احتمالات تأويل التضمين الأيقوني للمحادثات، لا تستوجب إلا معرفة بماقيل بغض النظر عن المعلومات السياقية والمعارف السابقة، حيث لادور لكيفيات التعبير اللساني في تحديد احتمالات التأويل، طالما أنه يتعذر علينا إيجاد سبل أخرى لنقول الأمر نفسه بالكيف المتعارف عليه لسانيا. **مثال:** فالتضمين الأيقوني للمحادثة بالأيقون الأهوائي (وضع نظارة سوداء)، لايمكننا أن نجد له مصاحبا لسانيا دقيقا، بل إنه يخالف بدلالته الوضع اللساني لما هو عليه الكلام، حتى وإن كان يدل في معجم المسنجر الأيقوني لبرنامج "ياهو"[13] على حالات الرضى. وذلك ما نصطلح عليه بـ:**قابلية الانفصال.**

لاتمثل التضمينات المحادثية جزءا من معنى التعابير التي تلازمها بفعل استخدامها، ذلك لأن الأيقون الأهوائي لايعكس في الغالب حالات الكينونة الصادقة للمتحاورين، غير أن ذلك أي اعتماد التعبير عن حالة الكينونة غير الصادقة، ينجح في الغالب في استهداف تحويل حالات الكينونة. إن مصاحبة الكلام مثلا بالأيقون الأهوائي للغضب مثلا، قد لا يعكس بصدق هذه الحالة، ولكنه في المقابل يقوى على تحويل حالة الكينونة عند الطرف الآخر. وهو ما نسميه بـ:**التحريك الأهوائي غير الصادق.** كل ذلك لا يتنافى بالأساس مع قوانين المحادثة، طالما أن صدق معنى المضمن محادثاتيا لايستلزمه صدق ماقيل، لأن التضمين لا يولده ماقيل، وإنما لا يولده إلا قول ماقيل أو الكيفية التي قيل بها القول.

تبقى قائمة التفسيرات مفتوحة لأن ما يُضمن سيكون بالضرورة غير محدد، حتى في أثناء الكلام أو المحادثة، وغالبا ما يتم التدارك بالفهم المتأخر وفقا لقانون التراكم، حيث يؤدي الاستدراك المحادثاتي إلى مضاعفة التوظيف واستعمال الأيقونات الأهوائية حتي بشكل عشوائي. وهو مايعكس مانسميه بـ **الانعكاس الأهوائي المفرغ.**

خلاصة:

يمكن لهذه المقابلات الأيقونية–والتي قد لانجد لها مكافئات معجمية- أن تكشف عن وجه للقصور في النعبير الكتابي ضمن بعده الصوتي، بالنظر إلى فعل الكلام. طالما أنها ليست مجرد زوائد لغوية عارضة عن الفعل الكلامي. بيد أن عدم تحديد هذه المتصورات لايعترض عليه في حد ذاته، بل يعده البعض من لواحق النشاط اللساني. الأكيد أن الكتابة اللسانية، تقوى على أدء مثل هذه المعاني أو الدلالات التي تختصرها التصويرات الأيقونية، ولكنه أداء لاينسجم مع قوانين الأداء الكلامي في أثناء المحادثة. ولهذه الأسباب يمكن أن تعد الأيقونات الأهوائية، على الوجه الذي يتم تداولها به، مقبولة قبولا تاما، لأنه قد ينتهي بها الأمر إلى أن تصبح غير مفهومة على أكمل وجه. ولعله الآن حري بنا أن نعيد مناقشة تصورات الكتابة، بل إن التوجه الأنسب يتمثل في تصور كتابة مثالية والشروع في بناءها. وعليه باستطاعتنا اليوم، أن نوجه نقدا لاذعا للنزعة التجريدية الرمزية للكتابة، التي ظلت رهينة في استجابتها الكليغرافية لمبدأ الخطية الصوتية، وتلك علاقة لم تؤسس على قاعدة الاقتصاد اللغوي- في معناه العام- التي تعد دعامة للغاية التواصلية.

الإحالات:

1- Martin, H.-J., Histoire et pouvoirs de l'écrit, Paris, Albin Michel,1988,p.34.
2- Ibid.,pp.35-37.
3- Ibid.,39-40.
4- -J. , Courtes, l'énonciation comme acte sémiotique ,In Nouveaux actes sémiotique, éd. PULIM, 1998,p.15 .
5- J . Courtes, sémiotique du langage, Armand Colin,2007.
6- Ibid.,
7- نشارلز دلروين،التعبير عن العواطف عند الإنسان والحيوانات، ترجمة عبد الستار الشيخلي.
8- لمرجع نفسه، ص.407-408.
9- المرجع نفسه، ص.38.
10- مهدي أسعد عرار، البيان بلا لسان، دراسة في لغة الجسد، دار الكتب العلمية، ط. ،بيروت،2007،ص.34.
11- ينظر كتاب، بإمكانك قراءة لغة الوجوه، لـــ ناعومي آر. تيكل، ترجمة مكتبة جرير،المملكة العربية السعودية،2008.
12- بول غرايس، المنطق والمحادثة، ترجمة محمد الشيباني وسيف الدين دغفوس، مجلة سيميائيات، العدد الأول،منشورات دار الأديب، الجزائر، ،ص.192.
13-يوضح الرسم الآتي معجم الأيقونات الأهوائية لرنامج "ياهو" للدردشة (إصدار 2003):

معجم الأيقونات الأهوائية لرنامج "ياهو" للدردشة (إصدار 2003)

	:)	happy		:-c	call me - New!
	:(	sad		:)]	on the phone - New!
	;)	winking		~X(	at wits' end - New!
	:D	big grin		:-h	wave - New!
	;;)	batting eyelashes		:-t	time out - New!
	>:D<	big hug		8->	daydreaming - New!
	:-/	confused		I-)	sleepy
	:x	love struck		8-|	rolling eyes
	:">	blushing		L-)	loser
	:P	tongue		:-&	sick
	:-*	kiss		:-$	don't tell anyone
	=((	broken heart		[-(	not talking
	:-O	surprise		:O)	clown
	X(	angry		8-}	silly
	:>	smug		<:-P	party
	B-)	cool		(:|	yawn
	:-S	worried		=P~	drooling
	#:-S	whew!		:-?	thinking
	>:)	devil		#-o	d'oh
	:((	crying		=D>	applause
	:))	laughing		:-SS	nailbiting
	:|	straight face		@-)	hypnotized
	/:)	raised eyebrow		:^o	liar
	=))	rolling on the floor		:-w	waiting
	O:-)	angel		:-<	sigh
	:-B	nerd		>:P	phbbbbt
	=;	talk to the hand		<):)	cowboy